

رابعاً - نشأة اللغة العربية ونشأة الدراسات اللغوية⁽¹⁾:

تمهيد:

لقد شغلت قضية نشأة اللغة الإنسانية المفكرين على مرّ العصور، وتصدّى للبحث عنها كثير من العلماء والفلاسفة، والمتكلمين واللغويين.

وقد بذلت جهود كثيرة، وأجريت تجارب متعدّدة لكشف هذه القضية، فلم يتم الاتفاق على رأي واحد، بل ذهبوا مذاهب شتى، وتوصّلوا إلى نظريات عديدة أشهرها أربع نظريات: نظرية التوقيف والإلهام، ونظرية التواضع والاصطلاح، ونظرية التقليد والمحاكاة، ونظرية الغريزة الكلامية.

ولكل دليله على ما ذهب إليه وتبناه، وقد صحّح المحققون إدخال هذه المسألة في علم الأصول من الفضول، ولهذا انصرف الباحثون مؤخراً عن الخوض في هذا الموضوع، "وقرّرت الجمعية اللغوية في باريس عدم مناقشة هذا الموضوع نهائياً، أو قبول أي بحث فيه لعرضه في جلسته"⁽²⁾.

1. أهمية تناول موضوع نشأة اللغات⁽³⁾: إنّه رغم احتدام النقاش والجدال بين العلماء في أصل نشأة اللغات، مع صعوبة سلامة أدلة كل فريق من الاعتراضات إلا أنّ تناول هذه النقطة بالذات أقصد تفسير نشأة الكلام الإنساني لها دواعيها، ومنها:

أ. معرفة عناية العلماء بهذا الموضوع.

ب. إنّ هذه القضية شغلت حيّزاً من التفكير، ونالت قدراً وافراً من الجهد.

ج. بيان أنّ علماء المسلمين قد شاركوا في هذا الموضوع، وعرضوا آراء لا تقل جدية واستدلالات عمّا قدّمه غيرهم قديماً وحديثاً، بل ربما فاقوا غيرهم وسبقوه.

وقد أشار الشنقيطي صاحب مراقي السعود إلى الخلاف في نشأة اللغات بقوله:

(1) فقه اللغة - مفهومه . موضوعاته . قضاياها: محمّد بن إبراهيم الحمد [55 وما بعدها].

(2) علم اللغة: الدكتور حاتم الضامن [95].

(3) فقه اللغة - مفهومه . موضوعاته . قضاياها: محمّد بن إبراهيم الحمد [55 وما بعدها].

واللغة الرب لها قد وضعاً***** وعزوها للاصطلاح قد سُمعا

فبالإشارة وباليقين***** كالطفل فهم ذي الخفاء البين⁽⁴⁾

2. نظريات نشأة اللغة⁽⁵⁾:

النظرية الأولى: نظرية التوقيف والإلهام⁽⁶⁾: حقيقتها، وأصحابها، وأدلتهم عليها والاعتراض عليها من طرف المخالفين.

أ. حقيقة نظرية التوقيف والإلهام: وخلاصتها أنّ اللغة الإنسانية إلهام، ووحى من الله تعالى، توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها، ولا يد للإنسان في وضعها.

*فإنّ الله تعالى علّم آدم أسماء الأشياء كلها ما خلق وما لم يخلق بجميع اللغات التي يتكلّم بها أولاده بعده فأخذ عنه أولاده اللغات، فلما تفرّقوا تكلم كل قوم بلسان ألفوه، واعتادوه⁽⁷⁾.

ب. أصحاب نظرية التوقيف والإلهام: وذهب إلى هذه النظرية كل من الفلاسفة اليونانيين [هركليطس] و [هيرالكيت/ت480ق.م]، ومال إليها بعض المُحدثين منهم الأب الفرنسي [لامي/ت1711م]، وبعض علماء اللغة الهنود، وقال بها عدد غير قليل من علماء المسلمين، ومنهم أبو بكر عبد العزيز، والشيخ أبو مُحمّد المقدسي، وطوائف من أصحاب الإمام أحمد، والأشعري، وابن فورك وغيرهم⁽⁸⁾، وأبو علي الجبائي [ت330هـ]، وعلي بن عيسى

(4) مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود: الشنقيطي [البيت 168/167].

(5) فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: مُحمّد بن إبراهيم الحمد [56 وما بعدها]، الوجيز في فقه اللغة العربية: عبد القادر مُحمّد مايو [24 وما بعدها].

(6) المزهر: السيوطي [18.8/1]، فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: مُحمّد بن إبراهيم الحمد [56 وما بعدها]، نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [124 وما بعدها]، في علم اللغة العام: الدكتور عبد الصبور شاهين [70 وما بعدها]، فقه اللغة في الكتب العربية: الدكتور عبده الراجحي [77 وما بعدها]، تاريخ آداب العرب: مُحمّد صادق الرافي [47 وما بعدها].

(7) نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [126].

(8) مجموع الفتاوى: ابن تيمية [240/12].

الرُّمَّانِي [ت384هـ] وابن فارس، والجاحظ⁽⁹⁾، وابن جني في أحد أقواله حيث ذكر أنه بعد بحث وتنقير قد قوي في نفسه اعتماد كونها توقيفا من الله تعالى، وأنها وحي⁽¹⁰⁾.

* وقد عقد ابن فارس في كتابه [الصاحبي] بابا عنوانه [القول على لغة العرب أتوقيفية أم اصطلاحية؟]، وقرّر في هذا الباب بأنها توقيفية⁽¹¹⁾.

ج. أدلة أصحاب نظرية التوقيف والإلهام: وهي نوعان نقلية وعقلية:

* من الأدلة النقلية: ومنها:

. وقد اعتمد غير المسلمين على ما ورد في التوراة من أنّ الله تعالى خلق جميع الحيوانات والطيور ثم عرضها على آدم عليه السلام ليرى كيف يسميها، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة، وطيور السماء، وذوات العقول.

ونصّ ما في التوراة: [وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها، فسّمى آدم جميع البهائم، وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية]⁽¹²⁾.

. وعند المسلمين: ومنها: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽¹³⁾.

قال ابن فارس: "أقول إنّ لغة العرب توقيف، ودليل ذلك. وذكر الآية السابقة الذكر. فكان ابن عباس يقول: علّم الأسماء كلها.

وهذه هي التي يتعارفها الناس من دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

(9) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون [191/3]، علم اللغة: حاتم الضامن [6].

(10) الخصائص: ابن جني [47/1].

(11) الصاحبي: ابن فارس [31].

(12) سفر التكوين، الإصحاح الثاني [19].

(13) البقرة: 31

. ثم ذكر تفسيرات أخرى للآية وخلص بقوله . : والذي نذهب إليه من ذلك ما ذكرنا عن ابن عباس⁽¹⁴⁾ .

. قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾⁽¹⁵⁾ .

وجه الاستدلال: وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية، وهي تلك الأسماء التي لم يسموها⁽¹⁶⁾ .

. قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁷⁾ .

وجه الاستدلال: فاختلاف الألسن دلالة على التوقيف، وقالوا إن الألسنة بمعنى الأعضاء ليست المرادة في الآية، لأنها لا تختلف، فالمراد بها اللغات من حيث إن اللفظ مشترك بين اللسان العضو واللسان اللغة⁽¹⁸⁾ .

* من الأدلة العقلية: ومنها:

. ومن حججهم إثباتا للتوقيف وردا على أصحاب نظرية المواضعة والاصطلاح: وهو أن الاصطلاح يحتاج إلى لغة سابقة، وهم يرون أنه إذا بطل الاصطلاح وجب التوقيف⁽¹⁹⁾ .

. إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب، مما يختلفون فيه أو يتفقون، واحتجاجهم كذلك بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى من في الاحتجاج بنا لو اصطالحنا واتفقنا اليوم على لغة معينة نحدثها، ونتواضع عليها⁽²⁰⁾ .

. إن الصحابة رضي الله عنهم، وهم الفصحاء ونظرهم في العلوم المختلفة لا خفاء فيه، ومع ذلك لم نسمع عنهم أنهم قد اصطالحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم⁽²¹⁾ .

(14) الصاحبي: ابن فارس [13].

(15) النجم: 23

(16) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [17/1].

(17) الروم: 22

(18) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [18/1].

(19) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [18 . 8/1].

(20) الصاحبي: ابن فارس [32/31].

د. الاعتراض على أدلة أصحاب نظرية التوقيف والإلهام: ومّا اعترض به على ما استدلوا به:

. إنّ نص التوراة يضعف دليلهم، وأنّه حجة عليهم لا لهم، لأنّ فيه إشعاراً بأنّ آدم عليه السلام هو الذي وضع الأسماء.

. إنّ الآية التي احتج بها علماء المسلمين ليست دليلاً قاطعاً، إذ اختلف المفسّرون في المراد بالأسماء.

. ولجواز أن تكون تلك خصوصية لآدم عليه السلام، فكما خلقه ابتداءً علمه ابتداءً، ولو أريد بالأسماء أسماء جميع الموجودات، فهل تعلّمها بجميع السنة أو لآدم؟ وهذه الأسئلة قد بلغت ألوفاً مؤلّفة، ومنها المخترعات ذوات الأسماء المرجّلة⁽²²⁾.

. إنّ لو كانت اللغة توقيفية، لما جاز لنا أن ندخل فيها شيئاً من الأسماء، ألا ترى إلى لغتنا العربية اليوم، ونحن ندخل فيها من مصطلحات العلوم والفنون الشيء الكثير؟ ألا ترى أننا ننقل دلالات بعض الألفاظ كالسيارة والدراجة وغيرها؟، إذ حدوث الترادف، والاشتراك، والتضاد في اللغة لدليل على أنّ اللغة ليست كلها توقيفياً من الله تعالى.

. إنّ التوقيف يحتاج إلى فهم لكلام الموقف سابقاً على التوقيف، وإلا لم يفهم⁽²³⁾.

وردّ هذا الأخير: إنّ الله تعالى قادر على أن يخلق في الإنسان علماً ضرورياً يعرف به معاني الألفاظ من غير فهم سابق⁽²⁴⁾.

النظرية الثانية: نظرية التواضع والاصطلاح [المواضعة]⁽²⁵⁾: حقيقتها، وأصحابها، وأدلتهم عليها والاعتراض عليها من طرف المخالفين.

(21) الصاحبي: ابن فارس [34/33].

(22) الوجيز في فقه اللغة العربية: عبد القادر مجّد مايو [26].

(23) مذكرة أصول الفقه: الشيخ مجّد الأمين الشنقيطي [171].

(24) مذكرة أصول الفقه: الشيخ مجّد الأمين الشنقيطي [171].

(25) فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: مجّد بن إبراهيم الحمد [59 وما بعدها]، نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [128 وما بعدها]، في علم اللغة العام:

أ. حقيقة نظرية التواضع والاصطلاح [المواضعة]: وخلصتها أنّ اللغة مواضعة واتفاق بين الناس، بحيث يصطلحون على كذا وكذا من الألفاظ.

أي أنّ اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع عليها وارتجال ألفاظها ارتجالاً⁽²⁶⁾.

وقد صوّر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه النظرية بقوله: "أنّ قوما اجتمعوا، واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا، وهذا بكذا، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات"⁽²⁷⁾.

ب. أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح [المواضعة]: ومّن قال بهذه النظرية الفلاسفة اليونانيون [ديمقريطس]⁽²⁸⁾، و [أرسطو]⁽²⁹⁾ و [ديمو كريت] في القرن الخامس قبل الميلاد، وأشار الهنود الأوائل إلى ذلك⁽³⁰⁾، كما مال إليها بعض الفلاسفة الإنجليز، وقال به من المسلمين أبو هاشم الجبائي المعتزلي [ت321هـ]⁽³¹⁾، والراغب الأصفهاني [ت503هـ]، وابن خلدون [ت809هـ]⁽³²⁾، وابن جني في قول آخر له حيث عقد فصلاً في كتابه [الخصائص]، وسمّاه الكلام على أصل اللغة أ إلهام هي أم اصطلاح؟، وذهب فيه إلى القول: [وأكثر أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح]⁽³³⁾، والسيوطي⁽³⁴⁾، وقد تبنت فكرة المواضعة في العصر الحديث آدم سميث، وروسو من خلال نظرية العقد الاجتماعي، والتي تقول: "إنّ اللغة

الدكتور عبد الصبور شاهين [69 وما بعدها]، فقه اللغة في الكتب العربية: الدكتور عبده الراجحي [77 وما بعدها]، تاريخ آداب العرب: محمد صادق الرفاعي [47 وما بعدها].

⁽²⁶⁾ نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [128].

⁽²⁷⁾ مجموع الفتاوى: ابن تيمية [62/7].

⁽²⁸⁾ علم اللغة: وافي [90].

⁽²⁹⁾ في علم اللغة العام: الدكتور عبد الصبور شاهين [35].

⁽³⁰⁾ البحث اللغوي عند الهنود: الدكتور أحمد عمر [100].

⁽³¹⁾ مجموع الفتاوى: ابن تيمية [62/7].

⁽³²⁾ مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون [492].

⁽³³⁾ الخصائص: ابن جني [40/1].

⁽³⁴⁾ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [18/1].

مظهر من مظاهر التعاقد الاجتماعي بين الناس⁽³⁵⁾ وأنّ الناس اجتمعوا في القديم لوضع لغة والاتفاق عليها.

والجدير بالذكر أنّ ابن جني قد عرض هذه النظرية، ولم يجزم بها كابن فارس، بل تردّد فيها هو وشيخه أبو علي الفارسي، بين التوقيف والإلهام، والقول بالمواضعة والاصطلاح⁽³⁶⁾.

* وثمة من حاول الجمع بين الوجهتين، والتوفيق بين الرأيين، فقال بالتوقيف، ولم ينكر الاصطلاح، ومنهم: سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط [ت210هـ]، وأبو علي الفارسي [ت374هـ]، وأبو إسحاق الإسفراييني [ت418هـ].

ج. من أدلة أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح [المواضعة]: ومنها النقلية والعقلية:

* من الأدلة النقلية: ومنها:

. قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽³⁷⁾.

وجه الاستدلال: فذكر أنّ الله تعالى خلق لآدم القدرة على استخدام اللغة ووضعها، وإلى هذا الفهم لهذه الآية الكريمة ذهب السيوطي بقوله: "لم لا يجوز أن يكون المراد من تعليم الأسماء الإلهام إلى وضعها"⁽³⁸⁾.

وهذا الفهم للآية الكريمة يتفق مع ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة، من أنّ الإنسان يولد مزوّداً بملكة على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة من عمره، وهذه الملكة تمكّنه من تلقي لغة المجتمع الذي يعيش فيه، فإذا عاش في مجتمع عربي تلقى العربية، وإذا عاش في مجتمع فرنسي تلقى الفرنسية، ولا صلة لهذه القدرة بالجنس الذي ينتمي إليه الإنسان.

* من الأدلة العقلية:

(35) علم اللغة: الدكتور عبد الله سويد والدكتور عبد الله مصطفى [20].

(36) الخصائص: ابن جني [94/1 – 99].

(37) البقرة: 31

(38) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [18/1].

وقد صوّر ابن جني هذه النظرية والاستدلال لها بقوله: وذلك أنّهم ذهبوا إلى أنّ أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا:

. وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز عن غيره، وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين.

. ويمكن أن ينقل التواضع إلى لغة أخرى، وما يشاهد من اختراع الصنّاع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار، والصائغ والحائك لدليل على هذا الرأي⁽³⁹⁾.

. إنّ اللغات لو كانت توقيفية لتقدّمت بعثة الأنبياء على اللغة، ولكن هذا لم يحدث، بل الذي حدث العكس، وهو تقدّم اللغة على بعثة الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾⁽⁴⁰⁾.

د . الاعتراض على أدلة أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح [المواضعة]: ومّا اعترض به على ما استدلوا به:

. إنّ التواضع يحتاج إلى لغة سابقة يُتفاهم بها، ومفاهمة فائتة ليعلم كل منهم مراد الآخر.

وردّ هذا: بأنّ الاصطلاح لا يحتاج إلى علم سابق لإمكان الفهم بالإشارة واليقين⁽⁴¹⁾.

. إنّّه لا يمكن أن يكون حكماء يتواضعون بدون لغة.

. إنّ هذا القول مجرد دعوى تفتقر إلى دليل، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " فلا يمكن لأحد أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم أنّه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء

(39) الخصائص: ابن جني [97/96/1].

(40) إبراهيم: 4

(41) مدّكرة أصول الفقه: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي [171].

الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع... فإن ادعى مدّع أنه يعلم وضعاً يتقدّم ذلك فهو مبطل، فإنّ هذا لم ينقله أحد من الناس"⁽⁴²⁾.

وقال كذلك: "وحيثُذ فمن ادعى وضعاً متقدّماً على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به"⁽⁴³⁾.

النظرية الثالثة: نظرية المحاكاة والتقليد⁽⁴⁴⁾: حقيقتها، وأصحابها، وأدلتهم عليها والاعتراض عليها من طرف المخالفين.

أ. حقيقة نظرية المحاكاة والتقليد [المناسبة الطبيعية]: وخلصتها أنّ نشأة اللغة بدأت محاكاة للأصوات الطبيعية، وتقليداً للأصوات المسموعة من الحيوانات والأشجار، وصوت الرعد وغيره. فالنشأة الأولى للألفاظ لا تعدو أن تكون تقليداً للأصوات التي في الطبيعة، سواء التي صدرت عن الإنسان أم الحيوان أم الأشياء، فهي تسمى الأشياء بأسماء مشتقة من أصواتها، كخرير الماء، وصهيل الفرس، وحفيف الريح، وهذا معناه أنّ لألفاظ اللغة دلالة ذاتية⁽⁴⁵⁾.

قال ابن جني: "وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحين الرعد، وخرير الماء، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الطي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل"⁽⁴⁶⁾.

ب. أصحاب نظرية المحاكاة والتقليد [المناسبة الطبيعية]: وتبنّى هذه النظرية عبّاد الصيمري [ت250هـ]⁽⁴⁷⁾ واعتبر ابن جني هذا المذهب متقبّلاً⁽⁴⁸⁾، ومال إليها كثير من الباحثين

⁽⁴²⁾ مجموع الفتاوى: ابن تيمية [62/7].

⁽⁴³⁾ مجموع الفتاوى: ابن تيمية [65/7].

⁽⁴⁴⁾ فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: محمّد بن إبراهيم الحمد [61 وما بعدها]، نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [131 وما بعدها]، في علم اللغة العام: الدكتور عبد الصبور شاهين [72 وما بعدها]، فقه اللغة في الكتب العربية: الدكتور عبده الراجحي [77 وما بعدها].

⁽⁴⁵⁾ نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 2007م [131].

⁽⁴⁶⁾ الخصائص: ابن جني [99/98/1].

⁽⁴⁷⁾ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [16/1].

⁽⁴⁸⁾ الخصائص: ابن جني [99/98/1].

المعاصرين، والأستاذ وتني من الغربيين⁽⁴⁹⁾، ومصطفى صادق الرافعي⁽⁵⁰⁾، والدكتور إبراهيم أنيس⁽⁵¹⁾، والدكتور علي عبد الواحد وافي من العرب⁽⁵²⁾.

يقول الدكتور عبد الواحد وافي: "وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور، وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الطبيعية"⁽⁵³⁾.

وهكذا كما يقول الدكتور حازم سعيد البياتي: "نرى ابن جني ينتقل بين النظريات الثلاث لا يدري بأيها يتمسك مع أن كل واحدة تتميز بطابع خاص"⁽⁵⁴⁾.

ج. من أدلة أصحاب نظرية المحاكاة والتقليد [المناسبة الطبيعية]: ومما استدل به هؤلاء على تبنيهم هذه النظرية:

* كون هذه النظرية تسائر طبيعة الأشياء التي تبدو بسيطة، ثم تنمو وتتطور، فاللغة من منطلق هذه النظرية بدأت تقليداً لأصوات الطبيعة، وقد يكون المتكلمون استخدموا مع ذلك التعبيرات والإشارات، ثم استغني عن ذلك فيما بعد.

* استندوا كذلك إلى لغة الطفل، والتي تبدأ تقليداً، ثم تنمو وتستقيم، وأن كثيراً من الأمم البدائية يستخدمون الإشارات اليدوية، والجسمية للمساعدة في التعبير.

د. الاعتراض على أدلة أصحاب نظرية المحاكاة والتقليد: ومما اعترض به على ما استدلوا به:

* كونها تنزل بالإنسان إلى ما هو أقل منه، إذ ليس من المعقول أن يقلد الإنسان صوت الحيوان، والأصوات المسموعة الأخرى.

(49) علم اللغة: الدكتور علي عبد الواحد وافي [95].

(50) تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي [48/1].

(51) دلالة الألفاظ: الدكتور إبراهيم أنيس [21].

(52) علم اللغة: الدكتور علي عبد الواحد وافي [96].

(53) علم اللغة: الدكتور علي عبد الواحد وافي [96].

(54) نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة: الدكتور حازم سعيد البياتي، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد الثاني عشر،

*إنّ اللغات الراهنة لا تشتمل إلا على قدر ضئيل من الكلمات التي تتضح فيها الصلة بين اللفظ والمعنى.

*إنّ كثيرا من الأمم البدائية يتكلمون بلغات لا يظهر فيها أثر المحاكاة والتقليد للطبيعة.

*ومّا يؤخذ على هذه النظرية كذلك أنّها عاجزة عن تفسير كيفية نشوء الكلمات الكثيرة للأشياء التي لا تصدر أصواتا، أو للأمور المعنوية التي لا وجود ماديا لها في الخارج، كالصدق والحب والوفاء والعقيدة والعدل.

ولهذا لم تلق رواجاً في الأوساط اللغوية الإسلامية، وكان هناك شك فيها، وتوقّف في الأخذ بها، حتى إنّ السيوطي قال: "والحقّقون متوقّفون في الكل، إلا مذهب عبّاد، ودليل فساده أنّ اللفظ لو دُلّ بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات، لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازم باطل فالملزوم كذلك" (55).

ويمتاز مذهب المحاكاة كما يقول الدكتور حاتم الضامن بأنّه يشرح لنا مبلغ تأثر الإنسان في النطق بالألفاظ بالبيئة التي تحيط به، غير أنّ أهم ما يؤخذ عليه أنّه يحصر أساس نشأة اللغة في الملاحظة المبنية على الإحساس بما يحدث في البيئة، ويتجاهل الحاجة الطبيعية الماسية إلى التخاطب والتفاهم والتعبير عمّا في النفس، تلك الحاجة التي هي أهم الدوافع إلى نشأة اللغة الإنسانية (56).

النظرية الرابعة: نظرية الغريزة الكلامية (57): حقيقتها، وأصحابها، وأدلتهم عليها والاعتراض عليها من طرف المخالفين.

أ. حقيقة نظرية الغريزة الكلامية: وخلصتها أنّها إحدى النظريات الحديثة، وترى أنّ الإنسان مزوّد بغريزة خاصة كانت تحمل كل إنسان على التعبير عن كل مُدرك حسي، أو معنوي بكلمة خاصة، ولذا اتحدت المفردات والتعابير عند الإنسان الأول، وأنّه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة.

(55) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [16/1].

(56) علم اللغة: الدكتور حاتم الضامن [97].

(57) فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: مُجّد بن إبراهيم الحمد [62 وما بعدها]، في علم اللغة العام: الدكتور عبد الصبور شاهين [72 وما بعدها]، فقه اللغة في الكتب العربية: الدكتور عبده الراجحي [77 وما بعدها].

ب . أصحاب نظرية الغريزة الكلامية: ومَن قال بهذه النظرية الفرنسي [رينان/ت1890م]، والألماني [مولر/ت1900م]، وهما من أشهر علماء اللغة الأوربيين.

ج . من أدلة أصحاب نظرية الغريزة الكلامية: ومَّا استدلوا به على هذه النظرية:

* اتحاد المفردات والتعابير عند الإنسان الأول، وأنه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة.

د . الاعتراض على أدلة أصحاب نظرية الغريزة الكلامية: ومَّا اعترض به على ما استدلوا به:

* إنَّ المعاني الكلية المعنوية تدل على رقي لا يصدّق معه أن تكون هذه هي اللغة الإنسانية الأولى التي يفترض أن تكون بسيطة، فهذه الأصول مرحلة لغوية متقدمة.

* إنَّ الغريزة الكلامية لم يعرف كيف استخدمت أول مرة للتعبير عن حاجة الإنسان، وهذا هو الموضوع الذي تدور حوله المشكلة كلها.

* خلاصة الكلام وحوصلته حول النظريات الأربع⁽⁵⁸⁾:

إنّه وبعد عرض النظريات الأربع اختصاراً يتبيّن أنّ الباحثين قد استنفذوا طرق البحث الممكنة، من اعتماد الأدلة العقلية والعقلية، والبحث في الواقع اللغوي بمختلف إمكاناته، ومع ذلك لم يتم التوصل إلى رأي قاطع في تلك المسألة، وقد سبق لأبي حامد الغزالي [ت505هـ] أن تنبّه إلى هذه المسألة، ونصّ على غموضها، وصعوبة البتّ في أمرها بقوله: "لا يبقى إلا رجم الظن في أمر لا يرتبط به تعبد عملي، ولا ترهق إلى اعتقاده حاجة، فالخوض فيه إذا لا أصل له"⁽⁵⁹⁾، أي لا موجب له.

وقد حاول جمع من العلماء والباحثين في هذه المسألة أن يأخذوا من كل نظرية بجانب، ولذلك يقول السيوطي: "وزعم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني أنّ القدر الذي يدعو به الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفا، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطرفين.

(58) فقه اللغة . مفهومه . موضوعاته . قضاياها: مُجّد بن إبراهيم الحمد [63 وما بعدها].

(59) المستصفي: أبو حامد الغزالي [1/145].

وقال القاضي أبو بكر: يجوز أن يثبت توقيفا، ويجوز أن يثبت اصطلاحا، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفا، وبعضه اصطلاحا والكل ممكن⁽⁶⁰⁾.

ففي هذا الرأي. كما يقول محمد بن إبراهيم الحمد. محاولة للتوفيق بين قولين هما أشهر الأقوال في المسألة، وهما القول بالتوقيف والإلهام، والقول بالاصطلاح والمواضعة.

وههنا محاولة للتوفيق بينهما، إذ كل منهما يحتمل شيئا من الصواب، ويتوجه إليه اعتراض، فلو جمعنا النظريات، وأخذنا الجانب الإيجابي من كل منهما دون إغفال لنظرية أخرى لربما أمكن الوصول إلى تصوّر أفضل.

فمما لا شك فيه أنّ الله تعالى علّم آدم عليه السلام الأسماء، ولو تركنا البحث والخلاف في معنى الأسماء، وتصوّرنا قدرا من اللغة تعلّمه آدم وأولاده من بعده ثم ذريتهم، وأضفنا إلى ذلك أنّ الله تعالى قد وهب الإنسان قدرة على التعبير عمّا في نفسه، فذلك الجهاز المسّمى بجهاز النطق، وذلك العقل المدبّر المحرّك للإنسان قادران على التعبير عمّا يستجدّ من أمور، إمّا عن طريق التقليد والمحاكاة. كما نرى في محاولات الأطفال. وإمّا عن طريق الاصطلاح كما يحدث كلما جدّ جديد في الحياة وضع له الاصطلاح المناسب.

وبهذا يمكن الجمع بين النظريات جميعا في تصوّر نشأة اللغة الإنسانية.

*الفائدة المبنية على الخلاف في أصل نشأة اللغة:

قال الأبياري: لا فائدة تتعلق بهذا الخلاف أصلا [الخلاف في مبدأ اللغات].

وقال بعض الأصوليين: إنّ هذه المسألة لا تدعو لها حاجة، فالحوض فيها تطويل بما لا فائدة تحته، وقال آخرون: هي مسألة طويلة الذيل قليلة النيل⁽⁶¹⁾.

وقال قوم: يبنى على هذا الخلاف جواز قلب اللغة كتسمية الثوب فرسا مثلا، وإرادة الطلاق والعنق بنحو: اسقني الماء. قالوا: فعلى أنّها اصطلاحية يجوز لقوم أن يصطلحوا على تسمية الثوب

(60) المرهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي [20/1].

(61) مدكرة أصول الفقه: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي [171].

فرسا مثلا، ولو احد أن يقصد ذلك في كلامه، وعلى القول بالتوقيف لا يجوز ذلك، وكذلك على الأول أيضا يصح الطلاق والعتاق بكأسقني الماء إن نواه به.

وعلى القول الثاني لا يصح. قال المازري: ومحل هذا الخلاف ما إذا لم يكن اللفظ متعبداً به كتكبيرة الإحرام، أمّا المتعبّد به فلا يجوز فيه القلب إجماعاً، وأشار إلى هذا في المراقي بقوله:

يبني عليه القلب والطلاق*****بكأسقني الشراب والعتاق⁽⁶²⁾

أي يبنى الاختلاف في اللغة فعلى أنّها توقيفية يمنع، واصطلاحية يجوز⁽⁶³⁾.

⁽⁶²⁾ مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود: الشنقيطي [البيت 169].

⁽⁶³⁾ مذكرة أصول الفقه: الشيخ الأمين الشنقيطي، الدار السلفية للنشر والتوزيع، الجزائر [172].